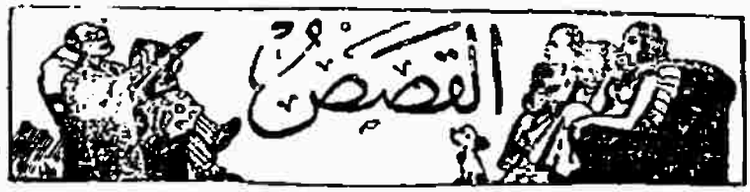

قصة من دون عنوان

مترجمة عن تشيكوف

بقلم الأديب كارنيك جورج

تشرق الشمس عند الصباح ، فتقبل أشعتها الانداء ، وتعيد إلى الأرض الرونق والبهاء ، فيمتلىء الجو بترانيم البهجة والآمال . وما إن يأتي المساء فتغرب الشمس حتى تلتف الأرض بالسكون وتغرق فى لجة الظلام .

هكذا الأيام تمضي أبداً متشابهة ، وبين حين وآخر تهب العاصفة أو يقصف الرعد أو يدوى صوت تهاوى نجم من نجوم الفلك ، أو ينطلق أحد الرهبان ليخبر رفقاءه عن أمر شاهده قرب الدير ! وهذا أغرب ما يحدث .. ثم تتتابع الأيام متشابهة ..

كان أكبر الرهبان فى الدير يجب العزف على القيثار وقرض الشعر اللاتينى فى إجادة فائقة. وحين يعزف على قيثاره يخلب ألباب سامعيه من الرهبان ، حتى أن الذين أضعفت الشيخوخة حدة أسماعهم كانت الدموع تتبلور فى مآقيهم عند سماعه. وفوق هذا يمتاز هذا الأب بظاهرة أخرى ، فهو إذا تحدث ملك المشاعر وجذب الأسماع ، حتى ولو تحدث فى أتفه الأشياء . إذ تتغير سحنته حتى تبدو كأنها تفصح عما يريد قبل أن يقول ما يريد بلسانه . فيحمر وجهه ، وترتفع نبرات صوته ، فيصمت الرهبان مأخوذين ، وهم يشعرون بسيطرة هذا الأب عليهم ، ولا يريدون منها خلاصاً ، بل يتركون زمام أنفسهم لصوته يمضى بها كيفما يريد .

فى بعض الأوقات يدب الملل فى قلوب الرهبان ، ويسأمون رؤية الأشجار والورود ، والخريف والربيع ، وتمل أسماعهم هديل الطير وخرير الماء ، بيد أنهم لا يسأمون غناء هذا الأب ولا يملون أحاديثه !

مضت أعوام كثيرة والرهبان يعيشون حياة مستقرة لا جديد فيها . فى ديرهم البعيد عن مساكن الأحياء بمقدار سبعين ميلاً أو أكثر . لذا فلم يقترب من الدير غير الطيور البرية والحيوانات المختلفة ، أما أبناء آدم فلا يقترب منهم إلا من زهد فى الحياة . وثاق إلى تلك الحياة الشبيهة بالموت .

فى ذات ليلة ردد الدير صوت دقات على الباب ! فاذا برجل يدلف إلى الداخل ؟ فيتبين الرهبان من منظره أنه من المدينة ، وأنه من محى تلك الحياة الصاخبة فاشتد عجبهم . وقبل الصلاة والتماس بركات الأب الأعلى طلب الرجل بعض الطعام والنبيذ ، فأتوا له بما طلب ، وإذ سألوه عن سر قدومه إلى الدير ، قص عليهم قصة طويلة . ذكر فيها أنه خرج للصيد فأمعن فى السير أوغل فى الصحراء حتى ضل طريقه ، واهتدى إلى الدير . وإذ ذاك شرع الرهبان يرغبونه فى البقاء معهم ، بيد أنه أجابهم وهو يبتسم :

— أنا لا أصلح لهذه الحياة

وبعد أن أكل وشرب ، نظر حوله وتأمل الرهبان القائمين على خدمته ثم هز رأسه وقال : — انكم أيها الرهبان ليس لكم غير الأكل والشرب ، والصلاة والعبادة . فهل هذا هو سبيل الحياة ؟ وهل بهذه الطريقة تريدون محاربة الشر والرذيلة ؟ وأنتم منزوون فى هذه الصحراء ؟ ... فكروا قليلا فى وضعكم الحالى ، فأنتم تقيمون بعيداً لا يشغل بالكم شىء . تأكلون وتشربون وتمرحون ، وتعيشون سعداء فى حين يتردى سائر الناس فى المهالك ، ويتعثرون فى طريق الرذائل ، ويمضون وراء الشيطان ذلك الذى تحاربونه ! ينبغى لكم أيها الآباء أن تمضوا إلى داخل المدينة ، وتقفوا بأنفسكم على ما يحدث فيها . إنكم سترون الجائعين والمساكين إلى جانب الناعمين المترفين الذين بنوا لكون على الرذائل والفجور ! حتى لقد خمد فى قلوب الناس نور اليقين فخلت نفوسهم من الايمان ! من هو المسئول عن هذا كله . ومن الذى يجب أن يرشدهم ويهديهم إلى السبيل القويم ؟ أنا ؟ لا ، بالطبع ، فأنا مثلهم ولست بأرفع منهم أبداً .

ارتفعت كلمات الرجل الغريب جارحة ساخرة. فأثرت تأثيراً كبيراً في نفس الأب الأعلى. فتغير لون وجهه وقال يخاطب الرهبان:

انه يقول الحق أيها الاخوان، فالواقع أن الناس هناك قد ضعف إيمانهم بالله، فانغمروا في الخطايا، فيجب أن أذهب اليهم وأقوي إيمانهم واذكرهم بأقوال المسيح عليه السلام»

وفي اليوم التالي تناول الأب الأعلى عكازه وودع أصحابه وتلمس الطريق إلى المدينة؛ تاركا سائر الرهبان محرومين من شعره وموسيقاه وأحاديثه الطلية، فقضوا شهراً مملا مضجراً، ثم قضوا شهراً آخر دون أن يعود اليهم الأب الأعلى حتى كادوا ييئسون من عودته، وبعد انقضاء ثلاثة أشهر ردد الدير صوت دقات الباب فهرع الرهبان اليه، وأحاطوه من كل جانب يسألونه ويستفسرون عن سبب تأخره ولكنهم فوجئوا إذ رأوه يبكي .. دون أن ينبس ببنت شفة! وكان في وقفته وفي هيئته يبدو كأنه غاب سنين عديدة رأنه عاد بالرغم عنه ولكن الرهبان لم يفطنوا إلى ذلك فبكوا لبكائه وترفقوا في التحدث معه، فاذا هو ينسل من بينهم، ويدخل صومعته الخاصة، ويبقى سبعة أيام فيها دون أن يأكل أو يشرب ودون أن ينقطع عن البكاء .. وكان طيلة تلك المدة يقابل توسلات الرهبان بالاعراض والصمت. بعد ذلك خرج اليهم وتوسطهم ثم طفق يروي لهم ما شاهد في المدينة، ووجهه يعبر عن حزن عميق قال لهم انه حين فارق الدير صافح أذنيه صوت الطيور التي أنشأت تغني له وتتطاير حوله، فجاشت في نفسه أحلام الشباب وآمال العمر، فراح ينظم الشعر ويغنيه. وهو يخال نفسه جندياً يذهب إلى معركة الفوز فيها مضمون لا شك فيه. حتى انه لم يشعر بأي تعب عندما دخل المدينة ...

وخفت صوته ولاح بريق الحنق في عينيه عندما أخذ يتحدث عما لاحظ في تلك المدينة، وقال انه رأى ما لم يكن يتصور أبداً طبيعة حياته. فقد بدت له قوة الشيطان بأوضح معالمها.. وتكشفت له فتنة الشر وتوقف على ضعف الانسان وحيوانيته وجنونه ...

فقد دخل أول ما دخل المدينة أحد البيوت التي تمج بأوضع الرذائل! فرأى نحو خمسين رجلا يأكلون ويشربون بنهم شديد وإذا لعبت الخمر برؤوسهم ارتفع أصواتهم تضج بأغنية مثيرة الكلمات وقحة المعاني! فبدوا للراهب الزاهد كأنهم لا يخافون الله ولا الشيطان ولا حتى الموت! فيغرقون في المجون إلى أبعد حد ممكن.

حتى النبيذ بدا للراهب كأنه يبسم لابتساماتهم. ويضحك لضحكهم وأنه يشاطرهم ذلك المجون الساثر الوضيع. فقد كان يزداد إشراقاً ولمعاناً كأنه يشعر بالفتنة الكامنة في أعماقه. فلا بدأنه كان حلو المذاق لذيذاً؛ يسطع بالروائح الذكية.

استشاط الأب الأعلى غضباً وانقدت عيناه واستطرد يقول أن ثمة امرأة نصف عارية وقفت وسط أولئك السكارى تتضاحك وتتراقص وتكشف عما أمر الله بستره، وتبدي جمالها الرائع وكانت سمراء اللون ممتلئة الشفاه لا تعرف اسم الحياء ولا معناه تتضاحك في وقاحة كأنها تقول «أيها الناس لا تخجلوا، أن حجابي فريد من نوعه» ثم راحت تشرب الخمر وتغني وتمنح نفسها لكل من يمد يده اليها.

توقف الأب الكهل، وهز قبضة يده وشرع يصف ساحات سباق الخيل ومصارعة الثيران ودور التمثيل وأماكن الرسامين الذين يرسمون النساء عاريات كما ولدتهن أمهاتهن .. واستمر يتكلم بلهجة متدفقة ساحرة الجرس، حتى جمد الرهبان وتملكهم تلك السيطرة التي تتملكهم كلما سمعوا أحاديث هذا الأب ... وبعد أن تكلم الأب الأعلى عن أوكار الشياطين وأماكن الشرور، أو بين جمال المرأة المخيف المريع، وعاد يسب ويشتم أو يصب اللعنات على الشيطان مصدر كل هذا الوبال. ومن ثم قام ودخل صومعته واقفل الباب خلفه!

وعند ما فتح الباب وخرج من الصومعة في صباح الغد، بحث عن اخوانه الرهبان فلم يجد لهم أثراً. فقد هرب الجميع إلى المدينة!

بغداد — كارنيك جورج